الفصل الأول

الملك فرديناند

والملكة إيزابيلا واليهود

منذ بداية اعتلاء إيزابيلا وفرديناند العرش عام ١٤٧٤، عقد هذان الملكان العزم على الحفاظ على التوازن بين اليهود والمسيحيين وعلى التعايش بينهم فى سلام ووئام. وتدل الشواهد على خلو ملوك إسپانيا على الصعيد الشخصى من المشاعر المعادية للسامية. ففى عام ١٤٦٨ كان الملك فرديناند يستخدم طبيبًا يهوديًّا من كاتالونيا يدعى داڤيد أبينا سايا، فضلًا عن أن فرديناند وإيزابيلا ربطتهما ببعض الأطباء ورجال المال اليهود صداقة حميمة. تقول الملكة إيزابيلا عام ١٤٧٧ فى هذا الشأن: «إن سائر اليهود فى مملكتى هم رعيتى وتحت رعايتى وحمايتى، ويتعين علىَّ الدفاع عنهم وتقديم المساعدة إليهم وإقرار العدل بينهم». وأيضًا وفرت هذه الملكة فى عام ١٤٧٩ الحماية للجالية اليهودية فى كاكيريس. وكثيرًا ما كان ملوك إسپانيا يقفون فى وجه البلديات والمحليات الإسپانية التى تفرض القيود على اليهود وتحد من حرياتهم. ففى عام ١٤٧٥ صدرت أوامر ملكية إلى مدينة بيلباو لإلغاء القيود التجارية التى فرضتها على اليهود. وفى عام ١٤٨٠ صدر أمر ملكى إلى مدينة أولميدو لبناء بوابة فى الجدار المحيط بمساكن اليهود لتمكينهم من الوصول إلى ميدان المدينة، ومعنى هذا أن المحليات والبلديات هى التى كانت تناصب اليهود الإسپان العداء فى حين أن الملوك الإسپان كانوا يدافعون عنهم ويوفرون الحماية لهم.

يتضح لنا مما تقدم أن اليهود فى إسپانيا عانوا من سوء معاملة البلديات والمحليات لهم، ففى عام ١٤٧٦ قامت سلطات مادريجال بسن قوانين معادية لليهود لإرغامهم على تمييز أنفسهم بلبس شارة مميزة ومنعهم من ممارسة الربا، واحتج اليهود فى أفيلد على هذه القيود ورفضوا إقراض المسيحيين أى نقود لحين إلغاء القوانين التى تحرم الربا، وأيضًا احتج اليهود عام ١٤٨٠ على سلطات طليطلة التى حاولت اتباع سياسة عزل اليهود وتقييد حركتهم فى أحياء سكنية خاصة بهم (الجيتو). وفى عام ١٤٨٤ فرضت مدينة بورجوس حظرًا على اشتغال اليهود ببيع الطعام، كما صدرت أوامر فى ١٤٨٥ لإغلاق أحيائهم فى أيام الأعياد المسيحية. وفى عام ١٤٨٦ صدر أمر من البلديات لتحديد عدد اليهود الذين يقطنون الجيتو (ولكن الملك تدخل فيما بعد لإلغاء هذا الأمر). وليس هناك شك فى أن رجال الدين المسيحى فى مدينة سرقسطة أججوا المشاعر المعادية لليهود فى أواخر القرن الخامس عشر.

وكما أسلفنا كان الملوك يعاملون الأقليات اليهودية بتسامح واضح، فضلًا عن أن هذه الأقليات كثيرًا ما كانت تضرب عرض الحائط بالقوانين التى تسنها المحليات، الأمر الذى وفر قدرًا لا بأس به من الحرية لليهود فى إسپانيا. وبحلول عام ١٤٨٠ بدأ ملوك إسپانيا يقتنعون نتيجة تحول أعداد هائلة من اليهود للدين المسيحى (عن غير اقتناع) بعدم جدوى فصل الجاليات اليهودية عن المسيحيين. وبإنشاء محاكم التفتيش فى إسپانيا عام ١٤٨٠ (التى تأخر ظهورها عن محاكم التفتيش الأوروپية بنحو قرنين من الزمان)، اكفهرت حياة اليهود وتلبدت بالغيوم، ومما زاد من نكدهم أنهم لاقوا فى بعض الأحيان خسفًا من بنى جلدتهم الذين تحولوا إلى الدين المسيحى أكثر من الاضطهاد الذى لاقوه على أيدى المسيحيين أنفسهم.

ونحن نرى أن اليهود فى بورجوس فى عام ١٣٩٢ يشكون من أن بنى جلدتهم الذين تحولوا حديثًا إلى المسيحية، وخاصة من أصبح منهم قساوسة ورجال دين، يمعنون فى اضطهاد اليهود. ولهذا توترت العلاقات فى كثير من الأحيان بين اليهود وبين بنى جلدتهم الذين نبذوا اليهودية ليعتنقوا المسيحية، فى حين ذهب أحبار اليهود فى أوائل القرن الخامس عشر إلى أن بنى جلدتهم أُرغموا على اعتناق الدين المسيحى، ولكن نراهم فى منتصف هذا القرن يغيرون رأيهم ويقررون أن زملاءهم اعتنقوا المسيحية طواعية وعن طيب خاطر.

وهكذا نشأ صدع فى صفوف اليهود وسرت روح التوتر والشك والتنابذ بينهم. ومما يدل على تدهور علاقة اليهود باليهود أن كثيرًا منهم عند إنشاء محاكم التفتيش لم يجدوا غضاضة فى الشهادة ضد اليهود الذين تحولوا إلى الديانة المسيحية. والجدير بالذكر أن اليهود الصرف كانوا أوفر حظًّا من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية من حيث إن قوانين محاكم التفتيش لا تطبق عليهم. وكثرت وشاية اليهود باليهود المتحولين إلى النصرانية، فنحن نرى فى مدينة كالاتابود (فى مملكة أراجون) عام ١٤٨٨ يهوديًّا اسمه أكاتس دى فيونس يعامل باحتقار من جانب اليهود والمسيحيين على حد سواء باعتباره كاذبًا وغشاشًا. كان هذا اليهودى السيئ الخُلق يدلى بشهادته الباطلة أمام محاكم التفتيش ضد بنى جلدته المتحولين إلى النصرانية متهمًا إياهم بالتظاهر بالمسيحية فى حين أنهم كانوا فى المواقع يمارسون طقوس ديانتهم اليهودية. ونحن نقرأ عن يهودى يقيم فى مدينة أراندا فى عقد الثمانينيات فى القرن الخامس عشر يبحث عن بعض اليهود المستعدين للشهادة الزور ضد يهود آخرين مدفوعين إلى ذلك بالكراهية والعداوة الشخصية. ويخبرنا هيرناندو ديل بولجار عن قيام اليهود فى طليطلة بالإدلاء بالشهادة الزور ضد زملائهم المتحولين إلى الدين المسيحى، وعندما علمت الملكة بكذب وشايتهم أمرت بالقبض عليهم وتعذيبهم. ونفس الشىء تكرر فى مدينة

صوريا فى عام ١٤٩٠، حيث نرى طبيبًا يهوديًّا يشى ببنى جلدته الذين اعتنقوا النصرانية مدعيًّا أن مواطنًا يهوديًّا وصف الراهب توركويمادا بأنه ألعن رجل فى العالم وبأنه مهرطق شرير، وفى مدينة أوكليس قام اثنا عشر يهوديًّا فى عام ١٤٩١ بتبليغ محاكم التفتيش بأن عددًا من اليهود الذين يتظاهرون بالنصرانية يمارسون شعائرهم اليهودية. وطبقًا لما يقوله الحبر اليهودى كامسالى، فقد طلبت محاكم التفتيش من المعابد اليهودية أن تتولى إلزام اليهود بالتبليغ عن بنى جلدتهم الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية.

ولم تعد وشاية اليهود باليهود بأية فائدة لهم، بالعكس كانت نتيجتها أن بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية فى عقد الستينيات من القرن الخامس عشر طالبوا بضرورة عزل اليهود عن المسيحيين، وأيضًا دفعت هذه الوشايات محاكم التفتيش إلى السعى إلى طرد عدد من اليهود.

ففى نهاية عام ١٤٨٢ أمرت محاكم التفتيش بطرد جانب من اليهود الذين يقطنون الأندلس، وتركت لهم حرية اختيار العيش فى مناطق إسبانية أخرى. وأيضًا صدر أمر فى يناير عام ١٤٨٣ بطرد اليهود من أسقفيات إشبيلية وقرطبة وكاديز، ولكن الملك أرجأ تنفيذ هذا الأمر ولم يتم استبعادهم من إشبيلية إلا فى صيف عام ١٤٨٤، ولكن يجدر بنا أن نتذكر أن أحد أسباب طرد اليهود هو الخوف من تعاونهم مع حكام مملكة غرناطة المسلمين الذين هاجمتهم جيوش الملك فرديناند، ولكن أوامر الطرد لم تطبق على عدد كبير من اليهود فى كاديز وقرطبة، ففى عام ١٤٨٦ أصدرت محاكم التفتيش فى أراجون أمرًا بطرد اليهود من أبرشيات سرقسطة وألبارسن وترويل، ولكن السلطة الملكية أرجأت تنفيذ هذا الأمر ثم قامت بإلغائه فى وقت لاحق. وفى نفس الوقت قامت بعض المدن بتنفيذ سياسة طرد اليهود متجاهلة اعتراض الملك واحتجاجه.

وعلى الرغم من تدخل الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا المتكرر لحماية اليهود من الاضطهاد، فإن توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش الإسبانية (ولصيق الملكة إيزابيلا) استطاع إقناعهما بضرورة عزل اليهود عن المسيحيين. وعندما اتضح لهما أن اتباع سياسة الطرد المحلى لليهود وإعطائهم حرية اختيار العيش فى مناطق إسبانية غير مجدية، لجأ إلى طردهم من البلاد طردًا شاملًا.

كانت الأقليات اليهودية التى طردتها البلاد الأوروبية فى القرون الوسطى من أراضيها ضئيلة فى حين كانت أعداد اليهود المطرودين من إسبانيا آنذاك كبيرة.

ولم تكن الأقلية اليهودية الإسبانية الوحيدة التى تعرضت للملاحقة والأذى، فقد امتد الأذى إلى الأقلية المسلمة. وابتداء من عام ١٤٨٠ كانت جميع موارد الاقتصاد الإسبانى موجهة لشن

الحرب على المسلمين المتمركزين فى غرناطة، وفى عام ١٤٩٠ اتهم المسيحيون المسلمين فى جوادا لاجارا بتحويل طفل يهودى إلى الدين الإسلامى، وعلى الرغم من أن المسلمين تعللوا بأن التحويل من دين إلى آخر فى إسپانيا كان أمرًا عاديًّا فقد أصدر المجلس الملكى الإسپانى قرارًا بعدم جواز تحويل اليهود إلى مسلمين، وكذلك عدم جواز تحويل المسلمين إلى يهود. كما أن القانون الإسپانى حظر على المسيحيين اعتناق أى من الديانتين اليهودية والإسلامية منذ عام ١٢٥٥ على أقل تقدير. وعندما قام المسيحيون الإسپان أثناء حربهم ضد غرناطة بالقبض على جماعات مسيحية اعتنقت الدين الإسلامى عقب سقوط مدينة مالاجا (مالقا)، نفذت حكم الإعدام الفورى فيهم، ولكن على النقيض من ذلك نرى الكنيسة الكاثوليكية عندما اكتشفت وجود حالات كثيرة من المسلمين المتحولين إلى المسيحية رحبت بنبذهم الإسلام.

وتردد الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا بعض الوقت قبل الموافقة على اتباع سياسة طرد اليهود؛ نظرًا لأن طردهم يسبب خسارة فادحة؛ لأن اليهود كانوا يدفعون الضرائب المفروضة عليهم مباشرة إلى الخزانة الملكية. وساهمت هذه الضرائب فى تمويل الحرب التى شنها الملك فرديناند ضد المسلمين فى غرناطة، فضلًا عن أن كثيرًا من الإسپان المسيحيين تحمسوا لطرد اليهود للتخلص من قدراتهم التنافسية العالية فى مجال المال والاقتصاد. ويبدو أن الملك فرديناند اتخذ قراره بطرد اليهود من البلاد بدوافع دينية بحتة، وشجعه على هذا الإجراء سقوط غرناطة المسلمة فى يده فى يناير ١٤٩٢، واعترف الملك أن طرد اليهود أضر بدخله وموارده الاقتصادية. وفى ٣١ مارس من ذلك العام أصدر الملك والملكة مرسومًا بطرد اليهود من كستيلا وأراجون، وخيرهم المرسوم بين اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد، فاعتنقها الكثيرون منهم عن غير اقتناع.

وبرر المرسوم سياسة طرد اليهود بأن اليهود المتحولين إلى النصرانية يتعرضون للأذى بسبب اتصالاتهم المستمرة وتعاملاتهم اليومية مع بنى جلدتهم الذين لا يكفون عن إغرائهم بنبذ المسيحية والعودة إلى دينهم الأصلى.

وقد عجزت محاكم التفتيش عن حل هذه المشكلة الشائكة على مدى اثنى عشر عامًا. وبالنظر إلى قلة أعداد اليهود المطرودين من الأندلس فقد قررت السلطات الإسپانية أن الحل لهذه المشكلة لا يكمن فى الطرد بقدر ما يكمن فى ضرورة عزل اليهود عزلًا كاملًا عن المسيحيين ثم طردهم.

وعندما علم اليهود بنية الإسپان المتجهة إلى طردهم، قام أحد أثريائهم، إسحاق أبرافاتيل، على رأس وفد من بنى جلدته لمقابلة الملك والتفاوض معه، ولكن الوفد فشل فى إثنائه عن عزمه فعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال نظير الرجوع عن قراره، ويقال إن الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش الراهب توركويمادا عندما سمع بأمر هذا العرض استشاط غضبًا فى وجود الملك وقذف بثلاثين

قطعة من الفضة على المائدة، وهى الثمن الذى قبضه يهوذا لتسليم السيد المسيح إلى قتلته. وطالب توركويمادا الملك بأن يخبره بالمبلغ الذى عرضه عليه اليهود لخيانة المسيح مرة أخرى. وفى مقابلة ثالثة أجراها زعماء اليهود وأثرياؤهم مع الملك، اتضح لهم بما لا يدع مجالًا للشك عزمه على طردهم، فالتجأوا إلى الملكة إيزابيلا لعلها تستجيب لهم، ولكن تبين لهم أنها تؤيد الملك فى سياسته تأييدًا كاملًا.

والواقع أن الاقتراح بطرد اليهود جاء من محاكم التفتيش التى قامت بصياغة مرسوم الطرد بلغة تقطر بكراهية السامية. وبعد أن اتبع الملك فرديناند منذ عام ١٤٨١ سياسة الطرد الجزئى لليهود نراه بعد ذلك ينتهج سياسة الطرد الشامل لهم استجابة لرغبة محاكم التفتيش.

ويتضح لنا من نسخة الخطاب الذى أرسله هذا الملك إلى حاكم مدينة أراندا موافقته المطلقة على سياسة طرد اليهود، إذ يقول فى خطابه:

«إدراكًا من المكتب المقدس التابع لمحاكم التفتيش لما يتعرض له بعض المسيحيين من أخطار نتيجة اتصالهم باليهود، فإن المكتب رأى ضرورة طرد اليهود من جميع أراضينا وممالكنا، كما أنه أقنعنا بالموافقة على هذا الطرد وتأييده. وهذا ما نقوم بعمله الآن بسبب أفضال المكتب المقدس والالتزامات التى يحتمها علينا، ونحن نفعل هذا على الرغم من الخسارة الفادحة التى تلحق بنا؛ حيث إننا نستهدف ونفضل خلاص الأرواح أكثر مما نفضل الفائدة التى تعود علينا وعلى الأفراد».

وقد أكد الملك على الدور الذى تضطلع به محاكم التفتيش فى خطابات أخرى، فعلى سبيل المثال تذكر خطاباته الأخرى أنه تم تبليغ المفتشين فى محاكم التفتيش فى سرقسطة بأخذ رأى الكاهن سانت كروز، ويضيف الملك قوله: «ومن ثم قررنا كما قرر هذا الكاهن ضرورة طرد اليهود».

والجدير بالذكر أن معظم اليهود فى إسبانيا كانوا خاضعين لسلطة الملك القضائية فى حين أن البعض لم ينطبق عليه هذا الطرد. فاليهود الذين يعيشون فى الأراضى التابعة لدوق ميدناسلى مثلًا لم ينطبق عليهم الأمر الملكى بطرد اليهود من الأندلس فى عقد الثمانينيات من القرن الخامس عشر، مما دفع الملك إلى أن يوضح للنبلاء والحكام (مثل كاتالان دوق كاردونا الذى افترض أن اليهود الخاضعين لسلطانه لا ينطبق عليهم المرسوم الملكى) أن المرسوم الملكى يشمل جميع اليهود بدون استثناء، وحتى يشجع الملك الحكام الإسبان على طرد اليهود، منحهم ممتلكاتهم.

وكما أسلفنا أدت سياسة الطرد هذه إلى تحول الكثيرين منهم إلى الديانة المسيحية لدرجة أن

الحبر اليهودى فى قرطبة تنصر على أيدى الكاردينال مندوزا وبعض ممثلى الكرسى البابوى، وأيضًا تحول إلى المسيحية رئيس قضاة اليهود فى كستيلا إبراهام سنيور وهو فى الثمانين من عمره على يدى الملك والملكة؛ حيث إنه كان رئيس الخزانة الملكية ويعتبر نموذجًا لليهودى الذى استفاد من خدماته وإخلاصه للملك فى مساعدة بنى جلدته وتوفير الحماية لهم، فضلًا عن زميله رجل المال أبرافاتيل الذى أصبح الناطق باسم اليهود، وأخذ يتفاوض مع السلطات الإسبانية على شروط هجرة اليهود من إسبانيا.

وقد انتشرت القصص عن وحشية اليهود فى أرجاء إسبانيا، ومن بينها قيام بعضهم بقتل طفل مسيحى فى سيجوفيا عام ١٤٦٨، الأمر الذى دفع چوان أرياس دافيلد أسقف سيجوفيا، وهو يهودى تحول إلى الدين المسيحى إلى معاقبة ستة عشر يهوديًا لتورطهم فى ارتكاب هذه الجريمة، فضلًا عن قصة قتل اليهود لطفل مسيحى فى مدينة لاجارديا فى منطقة طليطلة عام ١٤٩١. وقيل إن ستة يهود من المتنصرين اشتركوا فى ارتكاب هذه الجريمة، كما قيل أنه تم صلب الطفل المسيحى وانتزاع قلبه من مكانه من أجل صنع تعويذة سحرية للقضاء على المسيحيين، وقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى مرتكبى هذه الجريمة فى أفيلد فى نوفمبر ١٤٩١، وقد بلغ ذيوع هذه القصة درجة أننا نجد رواية مطبوعة لها فى برشلونة. ولا شك أن مثل هذه الشائعات التى سرت بين الإسبان جعلت الكثيرين مستعدين لقبول إجراء طرد اليهود والاقتناع به، ونفس هذه القصة سبق ذيوعها فى إنجلترا (راجع كتابى «الهرطقة فى الغرب» دار سينا للنشر ١٩٩٧).

ولا بد أن اليهود الإسبان كانوا يدركون أن عمليات طرد اليهود كانت تجرى على قدم وساق فى البلاد الأوروبية المجاورة. ففى محافظة پروڤنس التى أصبحت جزءًا من فرنسا، اشتدت حدة معاداة السامية حتى انتهت بطرد اليهود من أراضيها، كما تصاعدت حدة معاداة السامية فى دوقيات إيطاليا فى بارما وميلانو اللتين قامتا بطرد اليهود هناك فى عامى ١٤٨٨ و١٤٩٠. ويلاحظ أن المرسوم الإسپانى الخاص بطرد اليهود يختلف عما حدث فى پروڤنس الفرنسية وبارما وميلانو الإيطالية فى أنه لم يقتصر على طرد اليهود، بل خيَّرهم بين الطرد والتحول للدين المسيحى، وهو تحول رحبت به الكنيسة الإسپانية. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الملك فرديناند كتب بعد مضى شهرين من إصدار مرسومه الخاص بطرد اليهود إلى توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش ما يلى: «كثيرون يرغبون فى أن يصيروا مسيحيين، ولكنهم يخشون هذا بسبب محاكم التفتيش.. ومن ثم فإنى أطلب إليك أن تكتب إلى المحققين وتأمرهم ألا يتخذوا أية خطوات ضدهم إذا ثبت لهم وجود شوائب تشوب سلوك اليهود المتحولين إلى المسيحية، وخاصة إذا لم تكن هذه الشوائب جسيمة».

وعند طردهم من إسپانيا راودت اليهود أحلام مغادرة إسپانيا من أجل التوجه إلى أورشليم أو أرض الوعد، كما رأى المسيحيون فى انصهارهم مع المسلمين فى غرناطة إيذانًا بتدمير اليهود بدورهم. ولا أحد يعرف على وجه التحديد عدد اليهود النازحين من كستيلا وأراجون، فبعض المؤرخين يقدرونهم بمائة وسبعين ألف عائلة، فى حين يقدر آخرون عددهم بثمانين ألف نسمة، وعلى أية حال كان طرد اليهود من إسپانيا مأساة بكل المقاييس. وفى هذا الصدد كتب إسحاق أبرافينال يقول: «رحل من كافة المناطق التابعة للملك ثلاثمائة ألف يهودى سيرًا على الأقدام»، وكان اليهود فى أراجون أسوأ حظًّا من يهود كستيلا؛ حيث إن مجازر ١٣٩١ قضت على ربع تعدادهم. وفى مملكة بلنسية (ڤالنسيا) لم يزد عدد اليهود المقيمين هناك على نحو ألف يهودى عاش معظمهم فى مدينة ساجنتو. وفى ناڤار كان هناك نحو مائتين وخمسين أسرة يهودية، ومن ثم يمكن القول أن عدد اليهود الذين عاشوا فى إسپانيا عشية طردهم عام ١٤٩٢ زاد على ثمانين ألف نسمة.

ويصف لنا برنالديز محنة اليهود المطرودين من إسپانيا. فقد ساعد أثرياء اليهود جانبًا من فقرائهم فى تحمل نفقات التهجير، ولكن اليهود المعدمين لم يجدوا أمامهم سوى مخرج واحد من هذه المحنة وهى العماد واعتناق المسيحية. حتى اليهود الذين كانت لديهم ممتلكات لم يستطيعوا بيعها وتحويل عائدها إلى سبائك ذهب أو فضة؛ حيث كان محظورًا إخراج هذه السبائك من البلاد. ونجم عن ذلك كساد رهيب فى ممتلكات اليهود الذين عجزوا عن أن يجدوا مشتريًا لهم لدرجة أن اليهودى كان يضطر إلى بيع منزله مقابل حمار، أو كرمته مقابل كسوة من القماش، واكتظت السفن الناقلة لهم بأعداد غفيرة منهم، وأحيانًا كانت العواصف تضطر هذه السفن إلى الرجوع من حيث أتت، أى إلى الشواطئ الإسپانية مما دفع المئات من ركابها إلى اعتناق المسيحية من أجل البقاء فى إسپانيا. أما اليهود الذين استطاعوا الوصول بأمان إلى شواطئ شمال أفريقيا فقد تعرضوا للنهب أحيانًا والقتل أحيانًا أخرى، فضلًا عن أن سكان شمال أفريقيا ألقوا القبض على الكثيرين منهم واستعبدوهم وباعوهم فى سوق النخاسة، فى حين غرق آخرون فى البحر قبل وصولهم إلى بر السلامة، وأحيانًا كانت النيران تشتعل فى السفن التى تقلهم فيموتون حرقًا فى عرض البحر، كما أن الأمراض حصدت حياة بعضهم، ولم ينج من كل أنواع هذا العذاب غير عدد ضئيل منهم.

ورغم كل هذا الشقاء الذى كابده اليهود فإن عدد الذين هاجروا من إسپانيا بالفعل لم يكن بالضخامة التى قد يتصورها البعض؛ نظرًا لأن مئات الألوف منهم آثروا التحول إلى الدين المسيحى. وتشير الدلائل إلى أن نصف تعداد يهود إسپانيا فَضَّل التحول إلى الدين المسيحى على الطرد. فقد قامت أغلبية الجالية فى مملكة أراجون باعتناق الدين المسيحى، ومن المحتمل أن يكون يهود كستيلا قد فعلوا نفس الشىء. وبالطبع كان أحد الدوافع القوية للتحول إلى النصرانية هو

رغبة اليهود فى الاحتفاظ بممتلكاتهم، ومع ذلك فإن كثيرًا من اليهود رحلوا عن إسپانيا، ويحتمل أن يكون ثلث اليهود فى أراجون البالغ عددهم تسعة آلاف نسمة قد غادروها. وتوجه معظم يهود أراجون إلى إيطاليا فى حين ذهب معظم يهود مملكة كستيلا إلى بلاد أكثر تسامحًا معهم عن إسپانيا مثل ناڤار والبرتغال. وبمجىء عام ١٤٩٧ توقف اليهود عن الهجرة إلى هذين البلدين؛ نظرًا لصدور أوامر جديدة بضرورة اعتناقهم الدين المسيحى نتيجة زواج مانوفيل ملك البرتغال بملكة كاثوليكية، ولهذا السبب توجه كثير من المطرودين من الأندلس بوجه خاص إلى البلاد الواقعة فى شمال أفريقيا، فضلًا عن أن بعض اليهود فعلوا نفس الشىء نتيجة إرغام البرتغال لهم باعتناق النصرانية عام ١٤٩٧. وأيضًا أغلقت مملكة ناڤار باب الهجرة إليها عندما طلبت من اليهود فيها عام ١٤٩٨ التحول إلى المسيحية، وبعد مرور فترة طويلة بدأ اليهود ينزحون إلى تركيا. وقد شاهد دبلوماسى فى ميناء چنوه وصول هؤلاء التعساء إلى هذا المرفأ فوصف حالهم قائلًا: «إن العذاب الذى كابده هؤلاء اليهود يحرك المشاعر، فقد بدا عليهم الهِرَم والهزال حتى إن المرء يحسب أنهم أموات».

ولم يجد اليهود فى منفاهم فى أفريقيا أية راحة أو سلوى، فقرر الكثيرون منهم العودة إلى كستيلا، فكان اليهود مثل المستجير من الرمضاء بالنار، كذلك فضل الكثير منهم العودة إلى البرتغال، وهكذا تقلص عدد اليهود الذين غادروا إسپانيا والبرتغال بلا رجعة إلى نحو أربعين ألف يهودى.

وفى حين يؤكد بعض الدارسين أن الهدف من طرد اليهود كان الاستيلاء على ممتلكاتهم وثرواتهم، يذهب البعض إلى خلاف هذا ويدللون على سلامة رأيهم بأن اليهود المهاجرين من مالاجا وألميريا خرجوا منها وبحوزتهم مبالغ ضخمة من المال، فضلًا عن أن عددًا منهم تمكن من الخروج بمنقولاتهم الثمينة وجواهرهم، مثل الثرى إسحاق پيردونييل، الذى منحه آخر ملوك المسلمين فى غرناطة الحق فى اصطحاب ممتلكاته معه، وأيضًا سمحت السلطة الحاكمة للثرى اليهودى أبرافانيل وأسرته بأخذ ثرواتهم معهم، وكذا نجح بعض اليهود فى تهريب ثرواتهم عن طريق رشوة الحراس والموظفين. ونستدل على ذلك أيضًا من أن الحكومة قدمت فى عام ١٤٩٤ موظفًا فى مدينة سيوداد ريال للمحاكمة لأنه كان ينتزع مبالغ باهظة من اليهود للسماح لهم بالعبور إلى البرتغال، ولأنه سمح لبعضهم باصطحاب ذهبهم وفضتهم وبضائعهم المحظورة، والذى لا شك فيه أن المسيحيين الإسپان والبرتغاليين الذين استدانوا من اليهود استفادوا من التخلص من اليهود فى التهرب من دفع ما عليهم. وعلى أية حال يؤكد بعض المؤرخين أن السبب الجوهرى

الذى حدا بإسپانيا إلى طرد اليهود من أراضيها كان فى الأساس سببًا دينيًّا أكثر من كونه سببًا اقتصاديًّا، وكانت أملاك العائدين إلى الأراضى الإسپانية والمتحولين إلى النصرانية ترد إليهم. ويذكر التاريخ أن السلطة البرتغالية أرغمت موظفًا فى مدينة سيوداد ريال على رد بعض المنازل إلى صاحبها اليهودى المتحول إلى المسيحية لأنه استغل فرصة طرده واشتراها منه بأبخس الأثمان. فى عام ١٤٩٤ عاد إلى مدريد عدد من الأطباء اليهود المطرودين الذين تحولوا فيما بعد إلى المسيحية، فرحب بهم مجلس المدينة متمنيًّا قدوم المزيد منهم نظرًا لتميز اليهود فى مجال الطب.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هدف الملك فرديناند والملكة إيزابيلا من وراء طرد اليهود من إسپانيا لم يكن الخوف من حدوث صدع فى العقيدة الكاثوليكية.. وهم يؤكدون أن هذين الملكين لم يكونا على الصعيد الشخصى يحملان أية عداوة للسامية أو تحركهما الدوافع العنصرية، أكثر من هذا أنهما لم يحملا أية عداوة شخصية ضد المسلمين فى إسپانيا على الرغم من أنهم كانوا أكثر عددًا وأشد خطرًا من الأقليات اليهودية، بل إن دافعهما كان فى جوهره دافعًا دينيًّا بحتًا بدليل أن هذين الملكين أصدرا أمرهما إلى شعب جويبكا وشعب أوسما بعدم معايرة اليهود المتحولين إلى النصرانية بأنهم مخادعون أو منافقون. وبعد وفاة الملك فرديناند لم يخف الكثير من موظفيه وبعض أحبار بنى إسرائيل انتقادهم له بسبب طرده لليهود.

ويقول جيرونيمو دى زوريتا المفتش فى محاكم التفتيش الذى تولى تدوين حياة الملك فرديناند، إن الكثيرين كانوا يعيبون على الملك طرده لليهود. وهذا ما أكده مؤرخ محاكم التفتيش لويس دى بارامو بعض مضى قرن كامل على عملية الطرد، والجدير بالذكر أن موقف الملك فرديناند بعد عام ١٤٩٢ تأرجح بين الحظر والتسامح، كذلك تأرجح موقف ملوك إسپانيا من اليهود، ففى حين صدرت مراسيم بحظر طقوس العبادة اليهودية فى إسپانيا ومستعمراتها، نجد أن الملوك الإسپان يسعون إلى التخفيف من وطأة هذا الحظر فى أوائل القرن السادس عشر.. وفى ميلانو الإيطالية التى كانت تحت سيطرة الحكم الإسپانى لم يفرض الحظر فيها على العبادة اليهودية إلا بعد مضى قرن بأكمله على عام ١٤٩٢، وأيضًا مضى قرنان كاملان حتى فرض الحظر على الدين اليهودى فى أوران الخاضعة للحكم الإسپانى فى شمال أفريقيا، ومعنى هذا أن حظر الإسپان للدين اليهودى لم يكن عملًا منظمًا أو شاملًا، وأن السلطات الإسپانية كانت تسمح بممارسة شعائر الدين اليهودى لفترات طويلة فى أماكن متناثرة رغم فرض حظر عليها فى بعض المناطق الأخرى.

***

كانت إيزابيلا امرأة فاضلة تؤمن إيمانًا عميقًا بالعقيدة الكاثوليكية، فضلًا عن شدة إحساسها بالمسئولية والواجب، ومن ثم لم يكن من العسير إقناعها بضرورة إنشاء محاكم التفتيش كوسيلة لدعم كيان الدولة.

ولدت إيزابيلا فى ٢٢ أبريل عام ١٤٥١ فى مدينة مادريجال دى لاس أتلاس توريس فى جو يمور بالفوضى والاضطراب. فقد اتسم حكم والدها الملك جون الثانى بالضعف لدرجة أن الفوضى ضربت أطنابها فى منطقة كستيلا؛ حيث كان وجهاؤها يتصرفون بلا رابط أو ضابط وبدون أدنى إحساس بالمسئولية، وتفشت السرقة والاغتصاب على نحو هدد الشعب الفقير فى عرضه وماله القليل؛ مما حدا بالشرفاء إلى التفكير فى أنجح وسيلة لاستتباب الأمن وحفظ القانون فى البلاد. وللأسف كان الملك چون الثانى غافلًا لاهيًا ولعبة فى يد نبيل غير شرعى اسمه دى لونا ينحدر من أرفع عائلات أراجون وأسماها مقامًا. وكان هذا النبيل جذابًا للغاية يحب الموسيقى ويقرض الشعر مما راق فى عين الملك چون الثانى، فقام بتعيينه سيد سان چيمس الأعظم وحارس كستيلا، وكان طموح دى لونا ربيب الملك عظيمين، فاستغل ثقة الملك غير المحدودة فيه فاستولى على جانب كبير من ثروته وسلطاته، الأمر الذى أثار ضغينة بقية الأشراف ضده، حتى هنرى ابن الملك چون الثانى لم يتردد فى أن يقف فى وجه أبيه نتيجة لذلك، وبسبب مظالم دى لونا تألب وجهاء كستيلا عليه وعلقوه على حبل المشنقة.

اتخذ الملك چون الثانى لنفسه زوجة من إقليم أراجون تدعى ماريا وأنجب منها هنرى الذى صار وليًّا للعهد، ثم تزوج للمرة الثانية من الأميرة إيزابيلا حفيدة ملك البرتغال، ثم أنجب الملك چون الثانى من زوجته الثانية ولدًا يدعى ألفونسو وابنة تدعى إيزابيلا. وعلى سرير الموت رجا الملك چون الثانى ابنه وولى عهده هنرى أن يرعى أخته إيزابيلا وأخاه ألفونسو غير الشقيق. وانكبت أم إيزابيلا على تربيتها وقامت بتنشئتها نشأة قوامها التقوى والورع.

وفى حين كانت إيزابيلا فتاة تقية وورعة كان أخوها هنرى، رغم ما أشيع عنه من عجز جنسى، شديد التهتك.

لقد وضع شعب كستيلا كل أمله فى هنرى؛ لأنه تمرد على والده الفاسد ظنًّا منه أن الابن أفضل من أبيه، ولكن اتضح له أن هنرى أسوأ من والده. فقد كرس الابن حياته للاستمتاع بأطايب الحياة الحسية دون أن يمتلك إحساس والده المرهف بالموسيقى والشعر. كان هنرى يحمل المقت الشديد لمسلمى إسبانيا القادمين من مراكش وشمال أفريقيا، غير أن حملاته عليهم استنفذت الكثير من

موارد الدولة. وحتى يتمتع هنرى بشعبية عريضة اتبع سياسة إغداق العطايا والهدايا على أصدقائه وأعدائه على حد سواء، فهو يسعى بهداياه إلى أن يخطب ود أعدائه ويكسر شوكتهم، فضلًا عن أنه كان يتيه حُبًّا بمظاهر الأبهة والعظمة فى الحياة العسكرية أكثر من حبه للقتال الفعلى، الأمر الذى أدى إلى عجزه عن الانتصار على جيوش المسلمين الذين كانوا يسخرون منه ويحتقرونه، حتى الجيش المسيحى الذى جنده لمحاربة المسلمين اتسم بالضعف والهزال، وبسبب عربدته ونزواته ومغامراته الجنسية منذ فجر شبابه، هجر زوجته بلانش من مملكة أراجون بعد زواج دام اثنى عشر عامًا. وبعد طلاقه من امرأته الأولى تزوج هذا الملك العربيد من أخت ألفونسو الخامس ملك البرتغال، ولكن هذا الزواج سرعان ما انتهى بفضيحة؛ حيث إن زوجته الثانية وقعت فى غرام أحد نبلاء البلاط اسمه بلتران دى لاكويفا، وأيضًا وقع زوجها فى غرام إحدى وصيفاتها، وأخذت هذه العشيقة تنازع الملكة فى سلطاتها، الأمر الذى أدى إلى عراكهما وشجارهما. والغريب أن هذا الجو المشحون بالمباذل والمفاسد لم يؤثر فى الفتاة إيزابيلا مطلقًا فقد ظلت تعيش مع أخيها ألفونسو فى هدوء وسكينة وفى طهر وصفاء ونقاء يكرسان وقتهما للصلاة والتعبد.

كان من الطبيعى أن يتولى أخوها ألفونسو أو تتولى هى أريكة الحكم بعد وفاة أخيها هنرى الذى لم ينجب ذرية، غير أن المفاجأة حدثت عندما وجدت زوجة هنرى الثانى نفسها حبلى، وسرت إشاعة فى البلاط أن الملكة لم تحمل من زوجها بل حملت من عشيقها بلتران دى لاكويفا. وأنجبت الملكة فتاة تدعى لابلترنيجا أصبحت ولية العرش فى مملكة كستيلا، ولم يسكت النبلاء والوجهاء على هذه الفضيحة فهم يرفضون أن تولى عليهم فتاة مشكوك فى نسبها، وخشى الملك هنرى من تمرد البلاط عليه وتولية أخيه ألفونسو أو أخته إيزابيلا على عرش كستيلا، ولهذا قام هنرى باستدعائهما ليعيشا معه تحت سقف واحد درءًا لخطرهما حتى يكونا تحت نظره ويتمكن من مراقبتهما، ولكن هنرى لم يتمكن من تهدئة ثائرة النبلاء عليه بعد أن اقترح أن يقوم أخوه ألفونسو بالزواج فيما بعد من ابنته بلترانيجا. وكان أشد الناس ثورة عليه چوان باتشيكو ماركيز فيلينا، الذى خشى من أن تؤدى سياسة هنرى إلى تقلص نفوذه وحظوته فى البلاط. ولهذا عقد هذا الماركيز العزم على عزل هنرى وتعيين ألفونسو خلفًا له، وقام الماركيز فيلينا عام ١٤٦٥ بإحضار ألفونسو إلى حقل قريب من مدينة أفيلا وإقامة منصة هناك، ووضع على المنصة دمية تشبه الملك هنرى وقد أحاطت به كل مظاهر الأبهة والعظمة والجلال، وجاء رئيس أساقفة توليدو (طليطلة) واسمه ألفونسو كارليلو (عم الماركيز فيلينا والمناصر له) وصعد إلى المنصة وأزاح التاج الملكى عن الدمية، ثم قام الماركيز فيلينا بتجريدها من كافة دلائل العظمة وقذف بها إلى جمهور الحاضرين

الذين أسعدهم تقاذفها وتمريغها فى التراب، وطلب من الصبى ألفونسو البالغ من العمر أحد عشر عامًا أن يعتلى المنصة ويجلس مكان الدمية التى تمثل الملك هنرى، ثم وضع التاج الملكى على رأسه وأدى إليه الواقفون فروض الطاعة والولاء فشاعت البهجة بين الجمهور الذى صاح مرحبًا بالملك الجديد.

ورغم هذا فإن هنرى لم يتحرك ضد المناوئين له بسبب ضعفه وتخاذله وإيثاره للسلامة، بالعكس سعى هنرى إلى أن يكسب عدوه فيلينا إلى جانبه عن طريق رشوته وإغداق الهدايا عليه. ورغبة فى استرضاء عدوه عرض هنرى على أخى فيلينا واسمه دون بدرو جيرون أن يتزوج من أخته إيزابيلا التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها، ولكن إيزابيلا رفضت هذا الزواج بكل إباء وشمم. كانت إيزابيلا رغم تدينها الشديد لا تخلو من المطامع الدنيوية والسياسية وعلى رأسها رغبتها فى توحيد مملكة كستيلا مع مملكة أراجون؛ وتعللت فى رفضها الزواج من دون بدرو بضرورة استطلاع رأى أشراف كستيلا ونبلائها فى هذا الأمر فقد كانت إيزابيلا تعلم جيدًا حياة الفسق والمجون التى كان دون بدرو الذى يكبرها بعدة أعوام غارقًا لأذنيه فيها. ونظرًا لإدراكها بالعجز أمام أخيها هنرى فقد آثرت الانسحاب من حياة البلاط لتتوارى كسيرة النفس عميقة الحزن فى جناحها بالقصر، تواصل الصلاة وهى راكعة على ركبتيها كى يزيح عنها الله هذه الغمة. وازورت عن الطعام والنوم وطلبت من وصيفتها بيتويز دى بوباديلا أن تغمد خنجرًا فى قلب الفاسق دون بدرو إذا حاول الاقتراب منها، ولكن هنرى لم يكترث بتوسلاتها وبدا من المؤكد أن العريس دون بدرو سوف يظفر بها، ولكن شيئًا لم يكن فى الحسبان وقع، فقد سقط العريس مريضًا ولفظ أنفاسه الأخيرة فى غضون أربعة أيام عندما داهمه مرض غامض ومفاجئ أثناء سفره إلى مدريد، حيث من المزمع أن تتم إجراءات الزواج، ومن المحتمل أن يكون أحد المتعاطفين مع إيزابيلا قد دس له السم دون أن تعلم إيزابيلا بذلك. وعندما تحطمت طموحات عائلة دون بدرو فى التقرب من العائلة الملكية واعتلاء سدة الحكم، نشبت حرب أهلية طاحنة بينها وبين أعوان الملك هنرى، وانخرط الشاب ألفونسو أخو إيزابيلا فى هذه الحرب، ولكنه فى يوم ٥ يوليه ١٤٦٨ وُجد ميتًا على فراشه، ويحتمل أنه مات مسمومًا أو بسبب الطاعون المنتشر فى إسپانيا آنذاك. وبوفاته وبسبب الشك فى شرعية نسب بلترانيجا إلى أبيها الملك هنرى، أصبحت إيزابيلا هى الوحيدة المؤهلة لاعتلاء عرش كستيلا.

كانت إيزابيلا حينذاك فى نحو السابعة عشرة من عمرها وتتسم بالجدية التى لا تتناسب مع صغر سنها، كما كانت مدركة للأخطار المحدقة بها وببلادها، ولهذا آثرت أن تعود إلى حياة الدير

التى كانت تعيش فيه فى أفيلا، ولم تغادره إلا بعد أن هدأت حدة الجو المشحون بالنزاع والتوتر. ورغم صغر سنها كما أسلفنا فقد كانت على جانب عظيم من الحكمة والحنكة التى دفعتها إلى القول مرارًا وتكرارًا أنه لا يحق لها اعتلاء العرش ما دام شقيقها الملك على قيد الحياة، وأخيرًا زارها فى صومعتها فى الدير رئيس أساقفة توليدو (طليطلة)، الذى صرح بأنه يعتبرها ملكة كستيلا بعد وفاة أخيها ألفونسو، غير أن الفتاة عادت لتؤكد أن أخاها هو الأجدر بالعرش؛ لأنه لا يزال حيًّا يرزق، ولكنها بسبب شدة تدينها تطلعت إلى تطهير البلاد من الفسق والفجور وإلى أن يسودها السلام والوئام.

ثم قام هنرى بتطليق زوجته البرتغالية الماجنة وأعادها إلى بلادها، وهكذا أصبحت إيزابيلا وريثة عرش كستيلا المحتملة بعد وفاة شقيقها هنرى الذى تعهد أخيرًا بعدم إجبارها على الزواج بدون موافقتها، غير أنه طلب منها ألا تتزوج بدون أخذ رأيه، وكثر خُطَّابها فتقدم إلى الزواج منها أخو ملك إنجلترا إدوارد الرابع، ودوق جلوستر الذى صار فيما بعد الملك ريتشارد الثالث، ولكن إيزابيلا كانت كما ذكرنا تحلم بتوحيد مملكتى كاستيل وأراجون، الأمر الذى جعلها ترحب بالزواج من فرديناند أمير أراجون، وشاءت الأقدار أن تتحقق رغبتها، وبعد زواجها نجح الاثنان فى طرد المسلمين من آخر معاقلهم فى إسبانيا.

والجدير بالذكر أن رحلة كريستوفر كولمبوس لاكتشاف القارة الأمريكية تمت تحت رعاية الملكة إيزابيلا، والجدير بالذكر أيضًا أن فرص فرديناند فى اعتلاء سدة الحكم فى بلده أراجون كانت ضئيلة؛ حيث إنه كان له شقيق وشقيقتان يكبرونه فى السن، هم كارلوس وبلانش وليونورا، ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يؤول الحكم إليه. وبالنظر إلى أن زواج فرديناند من إيزابيلا تعارض مع مطامع فيلينا الذى رفضت إيزابيلا الاقتران به، فإنه سعى قدر استطاعته إلى وضع العراقيل أمام زواجهما، كما أنه أعلن عن تأييده لابنة هنرى لا بلترانيجا المشكوك فى نسبها، غير أن الشعب كان شديد التعاطف مع إيزابيلا وأظهر تحمسًا كبيرًا لزواجها من فرديناند. وكان من حسن حظ إيزابيلا أن أخاها هنرى اضطر إلى السفر إلى جنوب إسبانيا لخوض الحرب ضد أعدائه هناك، وأيضًا اضطر فيلينا إلى السفر معه إلى الجنوب، الأمر الذى أتاح لها فرصة الترحال من أوكافيا إلى مادريجال للتعجيل بإتمام إجراءات زواجها من فرديناند، غير أن أخاها هنرى وفيلينا الموتور لم يتركاها لحالها فقد تعقباها إلى مادريجال وزرعوا الجواسيس من حولها، بل إن فيلينا أرسل قواته للقبض على إيزابيلا وإعادتها إليه بالقوة، ولكن قائد القوات البحرية فى كستيلا وجد فرديناند فى الوقت نفسه رحب بإتمام هذا الزواج على وجه السرعة، وكذلك كان رئيس أساقفة طليطلة موافقًا على هذا الزواج.

ولما نما إلى علم هذين الرجلين أن قوات فيلينا فى طريقها للقبض على إيزابيلا سارعا بالسفر سرًّا لتحذيرها من الخطر الذى يحيق بها، وطلبا منها مغادرة المكان على الفور، وحين وصلت القوات المعادية إلى القصر كانت إيزابيلا قد لاذت بالفرار منه.

وأخيرًا سافر فرديناند البالغ من العمر آنذاك ثمانية عشر عامًا إلى مملكة كستيلا فى الخفاء، حيث عقد زفافه على إيزابيلا البالغة من العمر تسعة عشر ربيعًا، وكان العروسان خاليى الوفاض فاقترضا مالًا من المعارف والأصدقاء لإقامة حفل الزفاف، وكانت الزوجة أشد ما تكون سعادة بزوجها، فقد كان وسيمًا يفيض بالحيوية والشباب. وتم الزواج فى ١٩ أكتوبر ١٤٦٩ فى قصر يملكه چون دى فيفرو فى بلد الوليد (فالادوليد)؛ حيث كانت إيزابيلا تقيم، وبمجرد الانتهاء من مراسم الزواج قام العروسان بإبلاغ هنرى بالنبأ فامتنع عن تقديم التهنئة إليهما. وحتى يضع هنرى العراقيل أمام أخته إيزابيلا فى اعتلاء عرش كستيلا أعلن أن ابنته بلترانيجا ابنة شرعية وليس هناك غبار على نسبها، وكذلك أكدت أمها البرتغالية صحة نسبها، وأيضًا لجأ هنرى إلى المناورة على تزويج ابنته المشكوك فى نسبها إلى أخى ملك فرنسا لويس الحادى عشر هادفًا من وراء ذلك كسب تأييد الفرنسيين لابنته عندما تصير ملكة على كستيلا بعد إزاحة أخته من الطريق. ورغم كل هذه المؤامرات التى حاكها هنرى ضد أخته إيزابيلا، فقد ظلت على عهدها هادئة ومتماسكة ووقورة تتصرف بحكمة وورع، الأمر الذى زاد من شعبيتها بين عامة الناس. وعاش الزوجان فرديناند وإيزابيلا فى شظف وعوز واعتمدا فى معاشهما على الاقتراض من الأحباء والأصدقاء. أما الحياة فى كستيلا فكانت تنضح بالفساد واختفى منها الأمان وشاع القتل والسرقة والاغتصاب.

وفى ديسمبر عام ١٤٧٣ تم صلح بين الملك هنرى وأخته إيزابيلا، وأقام المآدب لتكريمها، ولكن سرعان ما داهمه المرض فعزا مرضه إلى محاولة من جانب أعوان أخته إيزابيلا لدس السم له، ولهذا قلب الأخ لأخته ظهر المجن وقرر القبض عليها، ولكن المنية لم تمهله فقد توفى فى ديسمبر عام ١٤٧٤، وأيضًا مات عدوها اللدود فيلينا مما زاد من تحسن ظروفها. وكانت مملكة كستيلا فى أسوأ حالاتها بسبب تمزقها نتيجة النزاع والصراع والحروب الأهلية، فضلًا عن أنها على شفا الإفلاس إن لم تكن قد أفلست بالفعل.

وبموت الملك هنرى أصبح هناك وريثتان محتملتان، ابنته المشكوك فى نسبها إليه، وأخته إيزابيلا المحبوبة من الشعب والمعروفة بشدة تقواها، ولكن أريكة الملك كانت فى نهاية المطاف من نصيب إيزابيلا، ولما علم زوجها فرديناند بأمر اعتلائها العرش جاء من أراجون على وجه السرعة كى يلحق بها، وتناقش الزوجان فى أمر الحكم، فعبر فرديناند عن رغبته فى أن تكون مقاليد

الأمور فى يده، ولكن زوجته أصرت على أن تكون الحاكمة لأن هذا حقها المشروع، وبعد أن احتدم النقاش طويلًا وافق زوجها على أن تكون الحاكمة الفعلية لمملكة كستيلا وألا يجد غضاضة فى أن يستمد سلطاته منها، فهما متحابان ومصلحتهما المشتركة تقتضى منهما رعاية وليدتهما إيزابيلا التى سميت باسم والدتها التى ولدتها فى مدينة ديونياس عام ١٤٧٠، واستجاب فرديناند لصوت العقل والحكمة فوافق على ذلك.

لم يكن الطريق أمام الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند سهلًا أو ميسورًا، فقد اعترض على ملكهما المؤيدون لابنة هنرى بلترانيجا المشكوك فى نسبها، وكان ألد أعداء إيزابيلا والمناوئين لها رجل عسكرى محنك هو الماركيز فيلينا ابن عدوها اللدود، وأيضًا غدر رئيس أساقفة طليطلة بإيزابيلا عندما أدرك أنها لن تعطيه الحظوة التى يطمع فيها، ولكن أكثر أعداء إيزابيلا عنفًا وضراوة كان ألفونسو الخامس ملك البرتغال الذى كان يطمع فى أن يضم كستيلا إلى أراضيه، فضلًا عن أنه لم ينس قط إهانة إيزابيلا له عندما رفضت أن تتزوجه، ورغبة منه فى الانتقام منها ساند ألفونسو الخامس غريمتها بلترانيجا التى خطط للزواج منها والزحف بقواته للاستيلاء على مملكة كستيلا، وبالفعل شن ألفونسو الخامس هجومًا عسكريًّا على إيزابيلا وفرديناند وتمكن من دخول كستيلا فى مايو عام ١٤٨٥ ليجد ترحيبًا من فيلينا عدو إيزابيلا اللدود. وتقدم ملك البرتغال الظافر لخطبة بلترانيجا واستخدم ألفونسو الخامس نفوذه لدى البابا كى يوافق على هذا الزواج، وتم الإعلان بأنه وعروسه هما حاكما كستيلا الشرعيان، واستمر هذا الصراع المسلح لمدة أربعة أعوام، ولكنه انتهى بانتصار إيزابيلا وفرديناند على أعدائهما الذين أرادوا إزاحتهما من العرش فى معركة حاسمة بالقرب من مدينة تورو، وبعد هزيمته وانكساره أعلن ألفونسو أنه نادم وأنه سيكفر عن ذنوبه بالترحال إلى الأراضى المقدسة، كما أنه أعلن تنازله للعرش لصالح ابنه چون، ولكن ما لبث أن تراجع عن أقواله وعن تنازله عن العرش وقام بحشد قواته مرة أخرى لمهاجمة كستيلا، ولكن خالة إيزابيلا التى كانت زوجة أخى ألفونسو توسطت حتى استطاعت إقناع المتنازعين بعقد معاهدة صلح بين الأطراف المتنازعة، غير أن إيزابيلا وزوجها فرديناند اشترطا على ألفونسو التعهد بعدم الاعتداء على كستيلا فى المستقبل، وفسخ خطبته بلترانيجا، وأخذ تعهد عليها بعدم المطالبة بعرش كستيلا فى المستقبل.

ومات والد فرديناند فورث الابن عنه حكم مملكة أراجون، وهكذا توحدت مملكة كستيلا التى تحكمها إيزابيلا ومملكة أراجون التى آلت بالوراثة إلى فرديناند، وقرر الاثنان أن يكرسا جهودهما لإعادة النظام إلى بلادهما التى دمرتها الحروب. وحتى يستتب الأمن فى البلاد أنشأت

إيزابيلا جهازًا عسكريًّا أطلقت عليه اسم «الأخوة المقدسة» هدفه حماية أمن المواطنين والحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم، والتصدى لجرائم قطع الطريق والسرقة والاغتصاب وغيرها من الجرائم. وفى بادئ الأمر فرضت إيزابيلا ضرائب على أصحاب البيوت للصرف على هذه القوة العسكرية التى تحولت إلى جهاز شرطة يصون أمن المواطنين، وطبقت الآفاق سمعة إيزابيلا الحسنة فأطلق عليها شعبها اسم الملكة الطيبة.

هذه هى قصة إيزابيلا التقية الورعة التى نشأ فى عهدها أفظع وأبشع نظام عرفته الإنسانية فى القرون الوسطى والمعروف باسم «محاكم التفتيش»، والجدير بالذكر أنه سبق لهذه السيدة الفاضلة أنها أقسمت فى شبابها لكاهن اعترافها، توماس دى توركويمادا، أنها سوف تنذر حياتها لاجتثاث الهرطقة من جذورها من أجل مجد الله ومجد الديانة الكاثوليكية، ولم يمض على اعتلاء إيزابيلا العرش وقت حتى جاءها من يذكرها بالعهد الذى قطعته على نفسها فى شبابها.

***

فكرة إعدام المهرطقين ليست جديدة على الدين المسيحى، ففى عام ٣٨٥ قام الإمبراطور المسيحى الورع ماكسيموس بتعذيب وإعدام المهرطق برسبليان وعدد من أتباعه. ثم تبعه الإمبراطور جستينيان (٤٨٣ ـ ٥٦٢)؛ ليفعل نفس الشيء ويصدر مجموعة من القوانين الخاصة بإعدام أنواع معينة من المهرطقين، وفى القرن الثالث عشر انتشرت فى جنوب فرنسا حركة مهرطقة قوية تعرف بـ «الألبيجنسيين» شنت الكنيسة الكاثوليكية الحرب ضدها فى الفترة من ١٢٠٩ حتى ١٢٤٤ بغية القضاء عليها، ولكنها لم تنجح فى استئصال شأفتها، فقد اختبأت هذه الحركة المهرطقة تحت الأرض تجنبًا لخسف الكنيسة واضطهادها. ومن ثم نشأت فكرة إقامة جهاز متخصص ومؤهل لاستئصال الهرطقة.

ولكن من الخطأ أن نظن أن الكنيسة قبل إنشاء محاكم التفتيش لم تكن لديها وسائلها لمحاربة الهرطقة، فقد كانت هناك فى كل أسقفية محكمة كنسية روحية للتصدى لأية هرطقة قد تنشأ. ورغم أن الأساقفة أنيط بهم تعقب الهرطقات وملاحقة المهرطقين، فإنهم كانوا يفعلون هذا فيما ندر، وبدا من الواضح أن تعقب المهرطقين بحاجة إلى إنشاء جهاز مكون من أناس مؤهلين للاضطلاع بهذه المهمة، ولهذا السبب أنشأ البابا فى روما بالتدريج جهازًا يعرف باسم «محاكم التفتيش». ويرجع الفضل فى إنشاء هذا الجهاز إلى طائفتى الرهبان المعروفتين باسمى الدومينيكان والفرنسيسكان، وأصبح من الواضح أن هذه المحاكم أكثر كفاءة فى عملها من المحاكم الروحية أو المحاكم الأسقفية

العادية.. وفى نهاية القرن الثالث عشر استطاعت محاكم التفتيش فى أوروبا أن تصبح فى منتهى الكفاءة والاقتدار من حيث قدرتها على ملاحقة المهرطقين وإنزال أشد العقاب بهم، وكانت محاكم التفتيش تعمل باستقلال عن المحاكم الروحية، ورغم أن الكنيسة عارضت استخدام التعذيب، فإن بابا روما أصدر فى عام ١٢٥٢ مرسومًا يسمح رسميًّا باستخدامه. والجدير بالذكر أن محاكم التفتيش انتشرت فى جميع أرجاء القارة الأوروبية باستثناء بلدين هما ألمانيا وإنجلترا. ففى إنجلترا مثلًا تكفلت التشريعات وتكفل القانون العام الصادر عن البرلمان بمهمة إحراق المهرطقين، ومعنى ذلك أن صلاحية قوة محاكم التفتيش اختلفت من دولة أوروبية إلى دولة أخرى، ولكن من المؤكد أن محاكم التفتيش الإسبانية كانت أكثرها فظاعة وأشدها بثًّا للرعب والترويع.

كان بدرو الثانى ملك أراجون أول من استن تشريعًا عام ١١٩٧ يقضى بحرق المهرطقين، وفى أوائل القرن الثالث عشر اشتهر جايم الأول بإنزال العقوبات المغلظة عليهم. ففى عهده تأسست فى مملكة أراجون أول محكمة تفتيش، ولكن نشاطها لم يتضح للعيان إلا فى القرن الرابع عشر عندما تحركت لمعاقبة بعض الرهبان الفرنسيسكان المنشقين على السلطة البابوية، فضلًا عن معاقبة اليهود والمسلمين الذين تظاهروا بالتحول إلى الدين المسيحى.

ولكن عندما اعتلى كليمنت السادس كرسى البابوية عام ١٣٤٢ اتخذ موقفًا فى صالح اليهود حين رأى ألمانيا تخيرهم بين الموت واعتناق العقيدة المسيحية. فقد قام بفرض الحرمان الكنسى على المعتدين على اليهود، كما أن رودريجو بورجيا، الذى تولى كرسى البابوية فى عام ١٤٩٢ حتى ١٥٠٣ رحب فى روما باستقبال اليهود المطرودين من إسبانيا ووفر لهم عيشة آمنة وسالمة، ولم يكن ترحيبه بهم راجعًا إلى العطف عليهم بل طمعًا فى الاستفادة من ثرواتهم.

وفى إسبانيا ألقى رجل الدين المسيحى فرانت مارتينيز فى عقدى السبعينيات والثمانينيات فى القرن الرابع عشر سلسلة من الخطب النارية التى أشعلت لهيب الكراهية ضد اليهود، الأمر الذى أدى إلى تعرضهم للمجازر فى كل من كاتالونيا وأراجون وكستيلا، ولكن رئيس أساقفة إشبيلية اعترض على تحريضه ولامه لومًا شديدًا وحذره من مغبة هذا التحريض؛ لأنه كان يدرك الفوائد الناجمة عن وجود اليهود، ولكن مارتينيز لم يكترث مطلقًا لتحذيره أو لتقريع البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤)، بل ظل سادرًا فى تهييج الشعب الإسبانى ضد اليهود. فقام رئيس أساقفة إشبيلية بتقديمه لمحكمة كنسية (وهى محكمة دينية تختلف عن محاكم التفتيش) للتحقيق معه، غير أن المصادفة وحدها شاءت أن يموت رئيس أساقفة إشبيلية، فاعتبر الشعب موته أمارة على خطأه وصواب غريمه مارتينيز، الذى واصل نفث سمومه ضد اليهود، الأمر الذى أثار الغوغاء عليهم

وجعلهم يقومون بسلبهم ونهبهم والاعتداء على حياتهم وممتلكاتهم. وقتل فى إشبيلية وحدها أربعة آلاف يهودى، ويقدر عدد الإسپان الذين راحوا ضحية أعمال الشغب بخمسين ألف يهودى.

وفى عام ١٤٦٠ نشر راهب فرنسيسكانى يدعى ألونسو دى سبينيا وثيقة لفت فيها الأنظار إلى الشرور التى يقترفها اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية. وشن دى سبينيا هجومًا ضاريًا عليهم، رغم أنه كان هو نفسه واحدًا من اليهود المتحولين إلى المسيحية، ولعله أراد بذلك أن يدرأ هجوم المسيحيين عليه. والجدير بالذكر أن هذا الراهب دافع بقوة عن ضرورة إنشاء محكمة تفتيش فى مملكة كستيلا لمحاكمة اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية فى حين أنهم يضمرون الولاء للدين اليهودى فى قرارة قلوبهم، وبادر الرهبان الفرنسيسكان بتأييده، والغريب أن مملكة كستيلا لم تكن البادئة بإنشاء محكمة التفتيش رغم الأمر الذى أصدره البابا سكستوس الرابع ١٤٧٤ بإقامتها.

ولعل السبب فى هذا يرجع إلى ضآلة عدد المهرطقين فى كستيلا، مما دفع الأساقفة إلى الاعتقاد بأنه بالإمكان وضع حد للهرطقة فيها دون الحاجة إلى إنشاء محاكم تفتيش، وعقدت ممالك كتالونيا وبلنسية وأراجون وناڤار اجتماعًا لدراسة الأمر الباباوى بإنشاء محكمة تفتيش فى مملكة كستيلا بحجة أن تظاهر اليهود باعتناق المسيحية أشد خطرًا على الدين المسيحى من الهرطقة، فاليهود فى رأيه هم الذين ينشرون الطاعون ويسممون الآبار ويخطفون الأطفال المسيحيين ويصلبونهم مثلما حدث فى بلد الوليد وزامورا. وتنقل ألونسو دى سبينيا بين أرجاء إسپانيا لإلقاء خطبه الملتهبة ضد اليهود المتحولين إلى النصرانية محذرًا الناس من خطرهم، فضلًا عما سطره من كتابات تحريضية فى هذا الشأن. وألح دى سبينيا على الحاجة إلى إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، ومن الناحية الرسمية لم تكن محكمة التفتيش مختصة بالنظر فى شئون اليهود، اللهم إلا إذا تحولوا إلى الدين المسيحى، فواجب محاكم التفتيش الأول والأخير هو محاربة الهرطقة وليس محاربة الدين اليهودى.

ورغم هذا الإلحاح على إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا فإن إيزابيلا ملكة كستيلا كانت لا ترغب فى ذلك؛ لأنها لا تريد الخضوع إلى السلطة الباباوية فى روما.

والجدير بالذكر أن علاقتها ببابا روما آنذاك سكستوس الرابع اتسمت بالتوتر والخلافات المستمرة، ولأن هذا البابا اتسم بالمحسوبية، فإنه كثيرًا ما تجاهل رغبات الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند فى تعيين مرشحيها لشغل بعض الوظائف الدينية الشاغرة فى كونيكا وسرقسطة وتاراجونا، وعين أقاربه وأصدقاءه. وعبثًا طلب فرديناند وإيزابيلا من البابا إلغاء تعييناته، فقد رفض قائلًا: «إن

الله منحه هذه السلطة وليس لأحد أن يعترض عليها». وبلغ الغضب بالملك والملكة حدًّا جعلهما يستدعيان سفيرهما فى الفاتيكان ويأمران رعاياهما الإسپان بمغادرة روما، غير أن البابا لم يرضخ لطلبات الملكين إلا بعد أن هدداه بالدعوة إلى عقد مجمع لمناقشة حدود السلطة البابوية وهو ما أراد البابا سكستوس الرابع تفاديه بسبب غرقه فى المحسوبية والفساد. وبطبيعة الحال كان لهذا البابا أعوان فى كستيلا، وخشيت إيزابيلا من نفوذ الفاتيكان على أتباعه من رجال الكنيسة فى كستيلا، الأمر الذى جعلها تتصرف بحذر وتتحسس طريقها. ورغم اعتراضه على إقامة محاكم تفتيش فى مملكة كستيلا خوفًا من تغلغل نفوذ البابا فى شئونها، فقد طلب راهب إشبيلية الدومينيكانى البارز ألوسيو دى أوجيدا مقابلة الملكة ورجاها أن تضع حدًّا لانتشار الممارسات اليهودية بين اليهود المتحولين إلى المسيحية قائلًا إن السبيل إلى تحقيق ذلك هو إقامة محكمة تفتيش.

ولم يبد على الملكة الاقتناع بوجهة نظره، فقد أُغرمت باليهود المتحولين إلى النصرانية وعينت كثيرين منهم فى بلاطها، فضلًا عن أنها كانت تعلم سلفًا أن الحسد من اليهود كان فى كثير من الأحيان السبب فى تحامل المسيحيين عليهم. وأيدها فى هذا الموقف المتعاطف مع اليهود المتنصرين دون بدرو جونزاليس دى مندوزا، الذى كان يشغل رتبة كاردينال إسپانيا ورئيس أساقفة إشبيلية. واعترض هذا الرجل على إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، ونصح الملكة إيزابيلا بعدم الموافقة عليها، وبالفعل استجابت إيزابيلا لنصيحته وأعرضت عن نصيحة أوجيدا. وحدث أن وصل إلى إسپانيا فى ذلك الوقت كبير المحققين فى محكمة تفتيش صقلية واسمه فيليپو دى باوبرى، الذى انتصر لرأى أوجيدا الداعى لإنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، ولكن بات من الواضح للرجلين أنهما سوف يفشلان فى إقناع إيزابيلا بوجهة نظرهما، ومن ثم صمما على التوجه إلى الملك فرديناند لمحاولة التأثير عليه عن طريق التلميح إلى استحواذه على ثروات اليهود. ورغم شدة ورعها فإن إيزابيلا رفضت تدخل زوجها فى شئون مملكتها، ولهذا اكتفت باستدعاء رئيس أساقفة إشبيلية وأمرته بمراقبة تصرفات اليهود المتحولين إلى النصرانية ومنعهم من ممارسة شعائر دينهم الأصلى. واستشاط المؤيدون لإنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا غضبًا لإدراكهم تساهل رئيس أساقفة إشبيلية وتراخيه، غير أن الرجل سعى جاهدًا للحيلولة دون ممارسة اليهود المتنصرين طقوس دينهم القديم، واعتبرت إيزابيلا أنها قد أدت بذلك واجبها نحو دينها وكنيستها.

غير أن حادثة تافهة جعلتها تغير رأيها الرافض لفكرة إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، وتتلخص هذه الحادثة العابرة فى أن نبيلًا شابًّا مسيحيًّا من عائلة جوزمان العريقة اتخذ فتاة يهودية من عائلة تحولت إلى المسيحية عشيقة له، واعتاد هذا الشاب أن يزور عشيقته فى حجرتها دون علم

أهلها، وفى إحدى زياراته لها فى ١٨ مارس ١٤٧٨ إبان أسبوع الآلام المقدس الموافق عشية عيد الفصح عند اليهود، وبينما الشاب يواقع الفتاة، إذا به يسمع جلبة كبيرة وأناسًا كثيرين يروحون ويجيئون أسفل الحجرة.. وخشيت الفتاة أن يفتضح أمرها فحاولت تهريب عشيقها خارج المنزل دون أن يراه أحد، ولكن الفرصة لم تسنح لها فخبأته فى دولاب، وبينما كان العاشق مختبئًا سمع والد الفتاة وأصدقاءه وقد اقتربوا من مخبئه يتحدثون، وفهم من حديثهم أنهم قد تحولوا إلى النصرانية حديثًا، وأنهم فى حقيقة الأمر قد اجتمعوا للاحتفال بعيد الفصح اليهودى، وأصاب الرعب الشاب المسيحى عندما اكتشف أن هذه العائلة اليهودية تتظاهر بالمسيحية، وبمجرد أن تمكن الشاب من الهرب من منزل عشيقته، قام على الفور بالتبليغ عنها. وتهلل أوجيدا وفرح وألقى القبض على جميع الحاضرين فى منزل العشيقة، فاعترفوا بذنبهم وطلبوا من الكنيسة الصفح والغفران، وكان من حسن حظهم أن محكمة التفتيش لم تكن قد أنشئت بعد فى كستيلا وغفرت لهم الكنيسة خطاياهم وعاقبتهم بأداء بعض فروض التوبة.

واغتنم رجل الدين أوجيدا هذه الفرصة السانحة فسافر على الفور إلى قرطبة ليقابل الملك والملكة، ولكنه طلب مقابلة الراهب توماس دى توركويمادا قبل الالتقاء بإيزابيلا وزوجها وروى له قصة العائلة اليهودية التى اعتنقت النصرانية، ولكنها لا تزال تمارس طقوس الدين اليهودى سرًّا، وذهل توركويمادا من هول الصدمة أكثر من اهتمامه بارتكاب الشاب المسيحى لجريمة الزنا، وبلغ انفعاله مبلغًا جعله يرافق أوجيدا عند مقابلة الملك والملكة، وفى حضرتهما أيد توركويمادا مطلب أوجيدا بضرورة إنشاء محكمة تفتيش على وجه السرعة حماية للكنيسة والعقيدة الكاثوليكية.

ورأى الملك فرديناند أن إنشاء محكمة تفتيش فى صالحه حتى وإن أدى ذلك إلى زيادة النفوذ البابوى فى بلاده، وتمكن من إقناع زوجته إيزابيلا بذلك، ومن ثم طلب الاثنان من البابا سكستوس الرابع إنشاء محكمة تفتيش فى مملكة كستيلا واستجاب البابا لطلبهما فى نوفمبر ١٤٧٨، ولكن هذه المحكمة ظلت عاطلة عن العمل لمدة عامين. ويُرجع بعض المؤرخين إحجام إيزابيلا عن استخدامها إلى طيبة قلبها وتقواها وعدم رغبتها فى إلحاق الأذى والعذاب برعيتها، فى حين يرى مؤرخون آخرون أن إحجامها عن استخدام محكمة التفتيش يرجع إلى النزاع الشديد الذى احتدم بينها وبين البابا حول أحقيتها فى اتخاذ القرار بشأن ممتلكات المهرطقين المصادرة؛ حيث إنها رأت أنه ليس من حق البابا أن يتدخل فيها أو يستولى عليها، وبعد لأى أجابها البابا إلى طلبها. وربما أحجمت إيزابيلا عن استخدام محاكم التفتيش لأنها كانت ترغب فى إقامة السلام فى ربوع بلادها التى فرقتها المنازعات وسياسة والدها وأخيها هنرى الخرقاء.

وفى ربيع عام ١٤٨٠ سافر فرديناند (الذى ورث تاج أراجون) وزوجته ملكة كستيلا إلى طليطلة حيث كان البرلمان مجتمعًا، وكان غرضهما من هذه الزيارة هو الحصول على قسم البرلمان بالولاء لابنهما وولى العهد چوان أمير أستورياس البالغ من العمر نحو سنتين، وأيضًا ناقش البرلمان القوانين الخاصة بوضع اليهود المرتدين التى أهملت ولم توضع موضع التنفيذ، واتخذ قرارًا بضرورة تنفيذها. وتقضى هذه القوانين بلبس اليهود شارة حمراء تميزهم عن المسيحيين، وأنه لا يحق لهم ممارسة المهن المحظورة عليهم، وتلك إجراءات طفيفة بالنسبة لما كانت محاكم التفتيش تفعله، وانتهز هذه المناسبة يهودى فكتب نبذة دافع فيها بحرارة عن اليهود، ولكنه من فرط تحمسه لهم سطر بعض الهرطقات التى ما إن رآها هرناندو دى تالافيرا الراهب الذى صار رئيس أساقفة غرناطة حتى ثارت ثائرته. وعندما عرض الأمر على الملكة أخذت تضيق ذرعًا بتصرفات اليهود وتأخذ خطوات فعلية لقمعها. وأمرت الملكة فى سبتمبر ١٤٨٠ الكاردينال ميندوزا وتوماس توركويمادا بترشيح محققين لتعيينهم فى محكمة التفتيش. وبالنظر إلى أن الهرطقة كانت أكثر انتشارًا وأوسع نطاقًا فى إشبيلية، فقد تم تعيين الراهبين الدومينيكان ميجويل موريلو، وچوان دى سانت مارتينو محققين فى محكمتها.

ووصل المحققون فى محكمة التفتيش فى موكب وقد ارتدوا أرديتهم البيضاء وأغطية وجوههم السوداء يصاحبهم رهط من الرهبان المألوفين (انظر كتابى «محاكم التفتيش» ـ دار الهلال، ٢٠٠١).

كان منظرهم مخيف «يخلع» القلوب ويبث الرعب فى الأفئدة، وسار الرهبان الدومينيكان فى شوارع إشبيلية كعادتهم حفاة الأقدام ولابسين أخشن الملابس، وفى مقدمتهم راهب دومينيكانى يحمل الصليب. واتجه الموكب فى صمت رهيب صوب دير القديس لتبدأ محكمة التفتيش عملها المروع، وكان عدد كبير من اليهود المرتدين عن المسيحية قد فروا من إشبيلية ولاذوا بضياع عدد من النبلاء والوجهاء مثل الدوق مدينا سيودينا، وكان فرارهم خطوة غير حكيمة من جانبهم؛ لأنه أثار شكوك المحققين فيهم. وأصدر المحققون أوامرهم إلى هذا الدوق وإلى الماركيز كاديز بالتبليغ عن أسماء جميع اليهود اللائذين بهما وإلقاء القبض عليهم وتسليمهم إلى محكمة التفتيش للتحقيق معهم. وقال المحققون إن من يوفر الحماية للمهرطقين يعتبر شريكًا لهم فى الهرطقة، إلى جانب التهديد بفرض الحرمان الكنسى على كل من يعصى أوامرهم، وخشى النبلاء على أنفسهم فقاموا بتسليم المستجيرين بهم إلى المحققين الذين ألقوا بهم فى غياهب السجون. ولم يفهم سكان إشبيلية حقيقة ما حدث لأنهم اعتادوا عدم تطبيق القوانين على اليهود الذين تمتعوا بفترات طويلة

من الهدوء والاستقرار والرخاء فى هذه المدينة على وجه الخصوص، مثل الثرى دييجو دى سوزان.
ودعا دييجو دى سوزان وجهاء اليهود إلى عقد اجتماع فى كنيسة سالڤادور فى إشبيلية التى دأب اليهود المتحولون إلى الدين المسيحى (المارانو) على إقامة الصلاة فيها، وهدد اليهود المجتمعون بإثارة المتاعب والقلائل ضد محكمة التفتيش إذا حاولت أن تمسهم بسوء، وارتفع صوت يهودى عجوز كان حاضرًا الاجتماع لتنبيه بنى جلدته إلى المشاكل التى سوف تنجم عن المقاومة، لكن اليهود المجتمعين تجاهلوا تحذيره، بل إنهم من فرط تحمسهم واحتجاجهم هددوا المسيحيين باستخدام القوة والسلاح.

ولكن السلطات فى إشبيلية ما لبثت أن عرفت ما يزمع هؤلاء اليهود فعله، وكان لكبيرهم دييجو دى سوزان ابنة آية فى الحسن والجمال، وفى لحظة الضعف العاطفى أفشت هذه الفتاة لحبيبها الأرستقراطى المسيحى بأمر هذه المكيدة، فقام هذا الحبيب بتبليغ محكمة التفتيش بالتمرد اليهودى المزمع بدافع من الولاء للكنيسة. وكانت فرصة ذهبية أمام محكمة التفتيش للانقضاض على صفوة رجال المال والأعمال اليهود دفعة واحدة، فقبضت عليهم وقدمتهم إلى المحاكمة على جناح السرعة، وصدرت عليهم أحكام بالإعدام، وكان الحكم الصادر بإعدام أى مهرطق يسمى عملًا إيمانيًّا. وقد صدرت أولى الأعمال الإيمانية فى مدينة إشبيلية يوم ٦ فبراير ١٤٨١، فقضت بإحراق ستة رجال ونساء وهم أحياء، وعقب صدور هذا الحكم وقف ألونسو دى هوجيدا ليلقى موعظته بهذه المناسبة؛ حيث جرت العادة أن يقوم الكاهن بإلقاء كلمة عقب إصدار محكمة التفتيش أحكامها على المهرطقين، غير أن القدر شاء أن يفقد هوجيدا حياته فى وباء الطاعون الذى اجتاح مدينة إشبيلية ليحصد حياة خمسة عشر ألفًا من سكانها.

ثم أصدرت محكمة التفتيش حكمها بإعدام ثلاثة أشخاص حرقًا على رأسهم اليهودى المتآمر دييجو دى سوزان، وتقدم هذا الرجل من خشبة الحرق بكل ثبات ورباطة جأش، وكان الحبل الملتف حول رقبته يتدلى فى الطين فطلب بكل أدب وتهذيب من أحد الواقفين المتفرجين أن يرفعه من الطين، وأقيم خارج مدينة إشبيلية معسكر متخصص للحرق يعرف بكامپو دى تايلادا.

واضطلع كاهن محلى اسمه ميزا بتزيين وزخرفة مكان الحرق، فكافأته الكنيسة بتعيينه المسئول عن تلقى الأموال والممتلكات المصادرة. وبعد حرق والدها المتمرد المتآمر، عانت سوزان الجميلة من الفاقة والعوز، فأشفق عليها رينولد دو روميرو أسقف تيبرياس وأدخلها أحد الأديرة، ولكن حياة الرهبنة لم تناسبها أو تروق لها فهربت من الدير لتلقى بنفسها فى أحضان عشاقها الكثيرين، وفى نهاية المطاف ارتمت فى أحضان بقال كان آخر عشاقها، ثم ماتت فى فقر مدقع، وبينما هى فى

النزع الأخير أوصت المحيطين بها أن يعلقوا جمجمتها على البيت الذى شاهد غدرها وخيانتها وحياتها المتهتكة الفاسقة، وتقول الأساطير إن أناتها وصرخات الندم على خيانتها واعوجاج سلوكها لا تزال تسمع فى جنبات الشارع الذى كانت تسكنه.

وسارعت الجالية اليهودية بالهرب من إشبيلية إلى شتى أنحاء إسپانيا أملًا فى أن يوفر لهم الأشراف والوجهاء الحماية لهم على نحو ما أسلفنا، ولكن الكنيسة كما أوضحنا أصدرت أوامرها لهؤلاء الأشراف بتسليم أى يهودى يستجير بهم إلى محاكم التفتيش. وحتى ندرك مقدار الفزع الذى بثته محكمة التفتيش فى قلوب هؤلاء الوجهاء، نقول إن ماركيز كاديز وحده أرجع نحو ثمانمائة يهودى من المستجيرين به من حيث أتوا، وهكذا ارتفع عدد المقدمين إلى محكمة التفتيش بصورة هائلة، فاضطر المحققون إلى الانتقال من مقرهم فى دير سانت بابلو الدومينيكانى إلى مقر جديد أوسع وأرحب فى قلعة تريانا خارج المدينة، وبسبب الأعداد الغفيرة من اليهود المشكوك فى صدق تحولهم إلى العقيدة المسيحية اكتظت بهم السجون والزنزانات.

وفى الفترة التى تفشى فيها الطاعون، كان محظورًا على اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى من أصحاب السمعة الطيبة مغادرة مدينة إشبيلية إلا بعد ترك ممتلكاتهم وراءهم، واستمرت أحكام الإعدام فى الصدور بدون انقطاع، حتى الموتى نبشت قبورهم لاستخراج عظامهم. وبحلول الرابع من نوفمبر تم إحراق ٢٩٨ شخصًا بينما حكم بالسجن المؤبد على ٩٨ شخصًا. وتقدم الكثيرون منهم يعلنون توبتهم على رجاء أن تعاملهم محاكم التفتيش بشىء من الرأفة، ولكن هذه المحاكم أجبرتهم على المشى فى طوابير فى شوارع المدينة للتكفير عن ذنوبهم، فضلًا عن إصدار أحكام بالسجن على هؤلاء التائبين (انظر كتابى «محاكم التفتيش»). والتمس التائبون الرحمة لدى بابا روما الذى عبر فى يناير عام ١٤٨٢ عن استنكاره للإفراط فى استخدام القسوة معهم. ولكن محاكم التفتيش فى إسپانيا لم تكترث برغبة البابا أو تبالى بنصيحته.

واتبعت محاكم التفتيش الإسپانية نهجًا خاصًا فى محاكمة اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى؛ حيث إنها نشرت بيانًا ذكرت فيه العلامات والمؤشرات الدالة على زيف تحولهم إلى النصرانية، وهى مؤشرات واهية ولا يمكن التعويل عليها أو الاعتداد بها، منها أنهم يغسلون أيديهم قبل الصلاة، ويقومون بتغيير الفراش أيام السبوت، وتسمية أبنائهم بأسماء من العهد القديم، وكذلك قيام المحتضر بإدارة وجهه إلى الحائط وهو فى النزع الأخير. وأجبرت محاكم التفتيش أحبار اليهود إلى الإدلاء بمعلوماتهم عن كل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية حتى لا يتعرضوا للعقوبة، فعلى سبيل المثال تعرض حبر من أحبار اليهود فى مدينة سرقسطة للتهديد بالموت إذا امتنع عن حث

بنى جلدته على طاعة المحققين والوشاية برفاقهم الذين لا يزالون يمارسون الطقوس والشعائر اليهودية، والتمس يهودى من الحبر أن يعفيه من عبء الوشاية بزميل له يدعى ألفونسو دى لا كابالريا لأن إفشاء سره سوف يؤدى إلى اتهام سائر أفراد الجالية اليهودية الذين تبعوه، ووافق الحبر على ذلك، غير أنه ما لبث أن تراجع عن موقفه بعد أن تبين له من المرسوم الصادر بطرد اليهود من إسپانيا فى عام ١٤٩٢ أنه يحتم عليه تبليغ السلطات، وأيضًا توقع رئيس الجالية اليهودية فى إشبيلية جوداه بن فيرجا القبض عليه بسبب تحريضه لكثير من اليهود المعتنقين للمسيحية على العودة إلى دين أسلافهم، ورغم أن جوداه تمكن من الهرب إلى لشبونة قبل القبض عليه، فإن السلطات المدنية، أو الذراع المدنى، استطاع الوصول إليه وسجنه وتعذيبه حتى الموت.

وكثر عدد اليهود المشكوك فى صحة تحولهم إلى النصرانية، الأمر الذى دعا إلى إنشاء محاكم تفتيش إضافية، وأصدر البابا يوم ١١ فبراير ١٤٨٢ قرارًا بتعيين سبعة محققين إضافيين، منهم توركويمادا كاهن اعتراف الملكة إيزابيلا الذى كان بحكم صلته الحميمة بها يتمتع بنفوذ هائل فى مملكة كستيلا.

وتوالى تعيين المزيد من المحققين فى مدن قرطبة وجمين وسيوداد ريال، وكانت عشيقة المسئول عن خزانة الكاتدرائية من أوائل ضحايا محكمة التفتيش فى قرطبة التى أصدرت أمرًا بحرق عشيقها أيضًا بعد أن تم حرقها بعام واحد، وقد أنشئت محكمة سيوداد ريال من أجل التعامل مع منطقة طليطلة، ولم يزدد عدد الذين حكمت عليهم هذه المحكمة بالحرق فى ٦ فبراير ١٤٨٤ عن أربعة أشخاص، ولكن عدد المحروقين ارتفع حتى وصل إلى ثلاثين رجلًا وامرأة فى حكمها التالى الصادر يومى ٢٣ و٢٤ من نفس الشهر.

ورغم أن هذه المحكمة لم تستمر لأكثر من عامين، فإنها قامت بإحراق ٥٢ مهرطقًا، وإدانة ٢٢٠ هاربًا، وإرغام ١٨٣ شخصًا على إعلان توبتهم والتكفير عن ذنوبهم. وفى عام ١٤٨٥ انتقل مقر هذه المحكمة إلى مدينة طليطلة، وفى طليطلة المكتظة بالتجار اليهود الأثرياء تكرر ما حدث فى إشبيلية، فقد سعى يهود طليطلة إلى الحيلولة دون تدخل السلطات فى شئونهم، كما سعوا إلى الاستيلاء على كاتدرائية المدينة، ولكن سعيهم باء بالفشل الذريع لأن السلطات هناك اكتشفت المؤامرة التى يحيكونها ضدها. وبعد انتقالها إلى مقرها الجديد فى طليطلة أصدرت محكمة التفتيش فى ١٢ فبراير ١٤٨٦ حكمًا بإعدام سبعمائة وخمسين شخصًا، سيقوا فى شوارع هذه المدينة وهم حفاة الأقدام وعراة الرءوس، وقد اصطفت الجماهير الإسپانية القادمة من الريف للفرجة والاستمتاع، وكتبت على جبين المتهمين عبارة: «تلقوا إشارة الصليب الذى أنكرتموه وفقدتموه».

وقامت المحكمة بمصادرة خُمس ممتلكاتهم لتغطية نفقات الحرب التى يشنها الإسپان على المسلمين. (والجدير بالذكر فى هذا الشأن أن المسلمين كانوا قد استطاعوا احتلال الجنوب الإسپانى فى حين ظل المسيحيون يعيشون فى شمال البلاد). وتكررت الحملات التى شنها المسلمون فى الجنوب على سكان الشمال غير أن المسلمين المنتصرين ما لبثوا أن انصرفوا إلى حياة الرغد واللهو والترف مما أضعفهم فى نهاية المطاف وقلب ميزان القوى تمامًا لغير صالح المسلمين، حيث ظهر عام ١٠٤٣ القائد الإسپانى رودريجو دى فينار الشهير باسم «سيد كامبيدور» الذى استطاع أن يبعث الروح فى صفوف المسيحيين المهزومين، وكان ذلك فى فترة حكم الملك ألفونسو، ولكن جيش المسلمين ما لبث أن تمكن من استعادة الأراضى التى فقدوها، ولكن أربعة قرون انصرمت قبل أن ينجح الملك الإسپانى فرديناند (١٤٥٢ ـ ١٥١٦) وزوجته إيزابيلا من إلحاق الهزيمة الماحقة بالمسلمين.

وكذلك أصدرت محكمة التفتيش الأمر بحرمان اليهود المتهمين بالردة من تقلد أية وظائف عامة، وإلباسهم أخشن الملابس، وأمرهم بالسير فى المواكب ستة أيام جُمع متتالية، وأن يقوموا بجلد أنفسهم كفارة عن ذنوبهم، فإذا تخلف أحدهم عن فعل هذا اعتبر مهرطقًا منتكسًا يستحق الحرق. ثم أصدرت المحكمة فى حكمها الثانى أحكامًا ضد تسعمائة تائب، ثم حكمها الثالث ضد سبعمائة وخمسين تائبًا. وقبل مضى عام واحد بلغ عدد الذين استعملت المحكمة نوعًا من الرأفة معهم خمسة آلاف شخص، وتم إحراق عدد كبير من الناس وأحيانًا كان يتم إحراق خمسين شخصًا فى اليوم الواحد، بينهم رجال دين ورهبان اشتهروا بالقداسة وطهارة الذيل.

وبالنظر إلى أن اليهود استشعروا خطر محاكم التفتيش الداهم عليهم، فإنهم لم يكفوا عن مقاومته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا على نحو ما رأينا. وكانت المقاومة فى مملكة أراجون أقوى وأشد من الممالك الإسپانية الأخرى، وكالعادة كان يهود أراجون يتمتعون بالثراء العريض والنفوذ الواسع، ويبدو أنهم كانوا ضالعين فى اغتيال المحقق جاسبار جاجلار يوم ١٠ مايو ١٤٨٤ بسبب أحكام الإعدام الكثيرة التى أصدرها على اليهود فى مدينة سرقسطة.

كان بدرو أربويس كاهن كاتدرائية سرقسطة هو الدينامو المحرك لمحاكم التفتيش، الأمر الذى جعل اليهود المتحولين يرتعبون منه ويسعون إلى التآمر للتخلص من حياته. وكانت قائمة المتآمرين اليهود ضده تضم مجموعة من علية القوم أمثال سانكو دى باترنوى، وجابرييل سانشس، وفرنسيسكو دى سانتافى، وجيرونيمو دى سانتافى، وفى ليلة ١٥ سبتمبر ١٤٨٥ قام هؤلاء المتآمرون اليهود بالهجوم على أربويس أثناء انشغاله بالصلاة فى الكاتدرائية وأصابوه بجرح بالغ أدى إلى وفاته بعد يومين من إصابته، وفيما بعد أدرجه بابا روما فى قائمة الشهداء.

كان من الطبيعى والحال كذلك أن تطالب الجماهير الإسپانية بالثأر من اليهود المتآمرين، وأن تسعى محاكم التفتيش للانتقام منهم، فقبضت على المئات منهم وزجت بهم فى سجون الجافيريا، وهى قلعة قديمة كان المسلمون القادمون من شمال أفريقيا قد شيدوها. وكان نحو أربعين سجينًا يحشرون فى زنزانة واحدة، وتم إعدام القائمين بالاغتيال بطريقة بالغة القسوة، كما أصدرت محاكم التفتيش أوامر بحرق شركائهم فى الجريمة، ويقال إنه صدرت الأحكام بإعدام ما لا يقل عن مائتى متورط فى عملية الاغتيال. ولكن يحتمل أن يكون هذا العدد مبالغًا فيه. وإذا كان لويس دى سانتا نجيل قد تمكن من الفرار بسبب نفوذه فى البلاط الملكى فقد قُطعت رأس ابن عمه وسميه باعتباره أحد المتآمرين الرئيسيين فى أرض السوق، وعلقت رأسه على عامود وأحرقت جثته. وتعرض سانكو دى باترنوى للتعذيب الأليم وحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكنه استطاع نظير المال أن يحصل على الإفراج ويعود إلى وظيفته. وقام أحد المتآمرين وهو فرانسيسكو دى سانتا فى بالانتحار قبل إصدار الحكم عليه. وهرب كثير من المتآمرين إلى فرنسا فقامت محكمة التفتيش بحرق دمى تمثل أشخاصهم وبطبيعة الحال صودرت جميع ممتلكاتهم. ورغم أن المتآمر ألفونسو دى لا كاباليرى نائب مستشار الملكة استطاع عن طريق بابا روما الحصول على عفو وتأكيد لسلامة إيمانه بالمسيحية، فإنه ـ بالطبع ـ لم يستطع أن يمنع محكمة التفتيش من استخراج عظامه من القبر وحرقها، كما أنه لم يستطع أن يمنعها من إصدار حكم باستتابة زوجته.

وأيضًا وقع عدد كبير من اليهود المتحولين إلى المسيحية تحت رحمة محكمة مدينة سرقسطة التى كثيرًا ما أصدرت أحكامها بإدانة كثير من أفراد العائلات الكبيرة مثل عائلة سانتانجيل، وعائلة سانكيز، حتى مؤرخ البلاط الملكى واسمه مايسر چونزالو دى سانتا ماريا سقط فى براثن محاكم التفتيش، فمات بعد تقديمه للمحاكمة ثلاث مرات، وفى غضون خمسة عشر عامًا صدر فى مدينة سرقسطة أكثر من خمسين أمر بالإعدام، وفى عام ١٤٨٨ أنشئت محكمة تفتيش برشلونة التى راح ضحيتها أحد أفراد عائلة جيرونيو دى سانتافى، وفى العام التالى أقيمت محكمة تفتيش فى مايوركا. وقد أدى نشاط محاكم التفتيش المحموم والقائم على التنكيل إلى هروب كثير من اليهود وغير اليهود من إسپانيا وبوجه خاص إلى جنوب فرنسا. ولم تقف الكنيسة مكتوفة اليدين أمام هذا الهرب المتكرر إلى البلاد المختلفة، فقد أمر البابا إينوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢) مفوضية هذه البلاد بالإسراع بتسليم الفارين إلى الكنيسة، وكان الأمراء والحكام فى هذه البلاد على استعداد لاستخدام العنف لإرضاء البابا وإجابته إلى طلبه.

وفى عام ١٤٩٢ سقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين فى إسپانيا فى يد القوات المسيحية

الظافرة، الأمر الذى أشعل حماس الإسپان الدينى وشجعهم على إحكام قبضتهم على اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى، وفى جو التعصب المسيحى الهستيرى، سرت شائعة فى مدينة أفيلد بذبح اليهود لطفل مسيحى من لاجارديا بهدف الانتفاع من دمه فى إقامة بعض الطقوس اليهودية، الأمر الذى شحذ همة محاكم التفتيش التى أصدرت فى خلال ثمانية أعوام أحكامًا بإعدام سبعين متهمًا فى هذه القضية المختلقة.

وفى ٣٠ مارس عام ١٤٩٢ تحقق حلم توركويمادا بتطهير إسپانيا من الوجود اليهودى، فقد اجتمع فى غرناطة بعد تحريرها من المسلمين ملوك إسپانيا ليوقعوا مرسومًا بطرد مائتى ألف يهودى منها.

وحتى يسهل اكتشاف اليهود الذين يتظاهرون بالمسيحية، أصدرت محاكم التفتيش قائمة تعدد الممارسات والشعائر والمعتقدات التى تمارس فى الدين اليهودى ولا صلة لها بالدين المسيحى، مثل الإيمان بأن المسيح المُخلِص لم يأت إلى العالم بعد، ومراعاة السبوت والأعياد والمناسبات اليهودية، والامتناع عن أداء أى عمل فى هذه الأيام، فضلًا عن لبس أفخر الملابس بمناسبة حلولها. ثم هناك طريقة ذبحهم للحيوانات والماشية، ومباركة أبنائهم بوضع الأيدى على رءوسهم دون رسم إشارة الصليب، ثم إن القانون الموسوى حرم على النساء اللاتى ولدن دخول دور العبادة لمدة أربعين يومًا، فضلًا عن أن اليهود يمارسون الختان ويطلقون أسماء عبرية على أبنائهم، وكذلك يغسل اليهود أجساد موتاهم ويحلقون شعورهم ويلبسون الملابس القشيبة ويرشون بيوت الموتى بالماء ويمتنعون عن أكل اللحوم فى فترات الحداد.

ويقول المؤرخ الثقة چوان أنتونيو للورنت إن المحققين فى محاكم التفتيش كانوا أشد ما يكونون حرصًا على إدانة آلاف اليهود المرتدين فى إشبيلية حتى يثبتوا للملكة إيزابيلا مدى تفشى الهرطقة فى هذه المدينة والحاجة إلى إقامة محكمة تفتيش هناك. والجدير بالذكر أن المؤرخ أنتونيو للورنت اشتهر بالصدق والأمانة كما يشهد له الروائى رافائيل ساباتينى فى كتابه الحجة «توركويمادا ومحاكم التفتيش الإسپانية».

ولد المؤرخ للورنت فى مدينة لوجرونو عام ١٧٥٦، ثم صار قسيسًا فى الثالثة والعشرين من عمره بعد أن درس القانون الرومانى والقوانين الكنسية فى الجامعة. وبسبب تفوقه تم تعيينه عضوًا فى مجلس إشبيلية الأعلى، وهو المجلس الذى يدير شئون محكمة التفتيش هناك، كما عين أمينًا للمكتب المقدس فى مسقط رأسه بعد أن أثبت أن عروقه تخلو من أية دماء يهودية أو إسلامية،

وأغضب هذا الرجل بأمانته وصدقه واستقلال رأيه محاكم التفتيش، فأرسلته لأداء التوبة فى أحد الأديرة، وعندما قام نابليون بغزو إسپانيا وإلغاء محاكم التفتيش مؤقتًا، سنحت للورنت فرصة لفحص ودراسة الأرشيف الضخم الخاص بمحاكم التفتيش. وفى النهاية طرد هذا الرجل من إسپانيا فاستقر فى پاريس، حيث ألف كتابه المهم: «التاريخ التحليلى لمحاكم التفتيش فى إسپانيا»، وأثار هذا الكتاب حفيظة كل من الكنيسة والسلطات الإسپانية، فقامت الكنيسة بشلحه من الكهنوت ومنعته من مباشرة التدريس فى المدارس، واستطاع هذا الرجل الصادق والأمين قبل وفاته فى السادسة والستين من عمره أن يفضح محاكم التفتيش ويميط اللثام عن جرائمها على نحو لم يسبق له نظير.

ومن المؤسف أن الرهبان كانوا أكثر جدًّا واجتهادًا من رجال الكنيسة الآخرين فى اقتفاء أثر الهرطقة. ولم يتورع أحد من هؤلاء الرهبان فى تعقبه لليهود المتحولين إلى النصرانية من أن يتسلق فى صبيحة أحد أيام السبوت سقف دير القديس بولس ليكتشف عدم انبعاث الدخان من مداخنه، مما يدل على عدم إشعال أى نار فيها، وليس هناك من يمتنع عن إشعال النار فى أيام السبوت غير اليهود، ومن ثم يجب تقديم كل صاحب دار يهودى لا ينبعث منها الدخان إلى محكمة التفتيش؛ لأن هذا من شأنه أن يثير الشكوك حول صدق اعتناقه للدين المسيحى.

وبطبيعة الحال استجار اليهود من تعسف محكمة التفتيش فى إشبيلية وقسوتها فى التنكيل بهم إلى البابا سكستوس الرابع، وأكدوا له أنهم مسيحيون صادقون ما فى ذلك ريب، ونظرًا للنزاع المحتدم بين هذا البابا والملكة إيزابيلا، نراه يتدخل لصالح اليهود المتحولين ويدين الممارسات القمعية التى لجأت إليها محكمة التفتيش فى كستيلا، وتعلل البابا بقسوة هذه المحكمة بسحب موافقته على أحقية الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند فى تعيين المحققين الذين تختارهم. ولم يحتج الملكان على تجريد البابا لهما من هذا الحق؛ لأنهما استمرا فى الاحتفاظ بحق مصادرة الممتلكات الخاصة بالمهرطقين، وأثلجت هذه المصادرات صدر فرديناند لأنه استخدمها فى تمويل حملاته العسكرية ضد المسلمين المتمركزين فى غرناطة. ورغم ازدياد نفوذ البابا سكستوس الرابع فى شئون محاكم التفتيش فى مملكة كستيلا، فإنه وافق على ترشيح ملكيها لتوماس توركويمادا كرئيس أعلى لمحاكم التفتيش وقام بتعيينه فى هذه الوظيفة. وفى ٢ أكتوبر ١٤٨٣ صار توركويمادا المفتش العام، ولم يمض خمسة عشر يومًا حتى أصبح له أيضًا الولاية القضائية على مملكة أراجون.

***